

الوحي

معنى الوحي

س: وضع معنى الوحي وأنواعه، وما تعريفه في اللغة والشرع؟

ج: يقال: وحيت إليه وأوحيت: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، والوحي: الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد، وبإشارة ببعض الجوارح.

والوحي مصدر، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين، هما: الخفاء والسرعة، ولذا قيل في معناه: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره، وهذا معنى المصدر، ويطلق ويراد به الموحي، أي بمعنى اسم المفعول. والوحي بمعناه اللغوي يتناول:

١- الإلهام الفطري للإنسان: كالوحي إلى أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي﴾ [القصص: ٧].

٢- والإلهام الغريزي للحيوان: كالوحي إلى النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

٣- والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء: كإيحاء زكريا فيما حكاها القرآن عنه: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

٤- ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَيْكَ أُورِيَاهُمْ لِيَجْدِلُواكُمُ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

٥- وما يلقاه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

ولغة القرآن الفاشية «أوحى» بالألف - ولم يستعمل مصدرها - وإنما جاء فيه مصدر الثلاثي: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

ووحى الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعاً بأنه:

كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه. وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحى.

والوحي بالمعنى المصدرى اصطلاحاً هو:

إعلام الله تعالى من يصطفيه من عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية سريعة.

كيفية وحي الله إلى ملائكته

س: ما المقصود بوحى الله ﷻ إلى ملائكته؟

١- جاء في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. وعلى إيجازه إليهم: ﴿إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره: ﴿فَالْمُنشَأَاتِ آمَرًا﴾ [الذاريات: ٤]، ﴿فَالْمُدْرِيَاتِ آمَرًا﴾ [النازعات: ٥].

وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه.

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمركم تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة - أو قال: رعدة - شديدة خوفاً من الله ﷻ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما

أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: «قال الحق وهو العلي الكبير» فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فيتهيي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ» [أخرجه الطبراني].

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحي تكلم من الله، وسماع من الملائكة وهول شديد لأثره، وإذا كان ظاهره -في مرور جبريل وانتهائه بالوحي- يدل على أن ذلك خاص بالقرآن فإن صدره يبين كيفية عامة، وأصله في الصحيح: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان...».

٢- وثبت أن القرآن الكريم كُتب في اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: ٣].

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفي السنة ما يوضح هذا النزول، ويدل على أنه غير النزول الذي كان على قلب رسول الله ﷺ، فعن ابن عباس موقوفاً: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَنْبِيْهِ﴾ [الفرقان: ٣٣]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيْلًا﴾ [أخرجه الحاكم والبيهقي والنسائي] [الإسراء: ١٠٦]، وفي رواية: «فُصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ» [أخرجه الحاكم وابن أبي شيبة].

ولذلك ذهب العلماء في كيفية وحي الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية:

(أ) أن جبريل تلقفه سماعاً من الله بلفظه المخصوص.

(ب) أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ.

(ج) أن جبريل ألقى إليه المعنى - والألفاظ لجبريل، أو لمحمد ﷺ.
والرأي الأول هو الصواب، وهو ما عليه أهل السنة والجماعة، ويؤيده حديث
النواس بن سمعان السابق.

ونسبة القرآن إلى الله في أكثر من آية: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾
[النمل: ٦].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].
﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِشْرَةً إِنْ عَرِ هَذَا
أَوْ بَدَلَهُ قُلُوبٌ مَّا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ
إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه لا كلام جبريل أو محمد.
أما الرأي الثاني فلا اعتبار له، إذ أن ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ كثبوت سائر
المغيبات التي لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها.

والرأي الثالث أنسب بالسنة لأنها وحي من الله أوحى إلى جبريل ثم إلى محمد ﷺ
بالمعنى، فعبر عنه رسول الله بعبارته، ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ الْمَوْجِئِ ۖ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾
[النجم: ٣-٤].

ولذا جازت رواية السنة بالمعنى لعارف بما لا يجيل المعاني دون القرآن.
ويجاب على من قال: إنه كلام جبريل، بأن هذا قول فاسد لوجوه:
أحدها: أن المسلمين أجمعين إذا تلاوا آية قالوا: «قال الله تعالى»، ولو كان هذا
قول جبريل لقالوا: «قال جبريل».

الثاني: أن هذا الذي بين دفتي المصحف بإجماع المسلمين هو كتاب الله، وعلى
قولهم فإنه يكون كتاب جبريل.

الثالث: أن الله تعالى قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].
وعلى قولهم، ما نزله من ربك، إنما نزله من كلام نفسه.

الرابع: أن الله تعالى قال: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَقْلُوبُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وعلى قولهم لا يكون هذا صحيحًا، وإنما يكون المسموع كلام جبريل. ويجب على من قال: إنه كلام محمد بأن هذا باطل لتلك الوجوه الآتية الذكر كلها.

ومن وجه آخر، فإنهم وافقوا الوليد بن المغيرة في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، فدخلوا معه في الوعيد بقوله تعالى: ﴿سَأُصَلِّبُ سَفَرًا﴾ [المدثر: ٢٦]. ويرد عليهم من الجواب ما أجاب الله تعالى به المشركين بقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِئَلَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

س: اذكر أهم خصائص القرآن الكريم؟

ج: أهم خصائص القرآن الكريم:

- ١- أنه معجز.
- ٢- قطعي الثبوت.
- ٣- يتعبد بتلاوته.
- ٤- يجب أداؤه بلفظه، والحديث القدسي - على القول بنزول لفظه - ليس كذلك.



كيفية وحي الله إلى رسله

س: ما كيفية وحي الله ﷻ إلى رسله الكرام؟

ج: يوحى الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة.

فالأول: بواسطة جبريل ملك الوحي وسيأتي بيانه.

والثاني: هو الذي لا واسطة فيه.

(أ) منه الرؤيا الصالحة في المنام: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» [متفق عليه]، وكان ذلك تهيئة لرسول الله ﷺ حتى ينزل عليه الوحي يقظة وليس في القرآن شيء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة، خلافاً لمن ادعى نزول سورة «الكوثر» مناماً للحديث الوارد فيها، ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه: «بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: نزلت عليّ أنفاً سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر] فلعل الإغفاءة هذه هي الحالة التي كانت تعتره عند الوحي.

ومما يدل على أن الرؤية الصالحة للأنبياء في المنام وحي يجب اتباعه ما جاء في قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل [هذا هو الصواب، خلافاً لمن ذهب إلى أنه إسحاق، فإن البشارة كانت أولاً بإسماعيل قبل إسحاق، وإسماعيل هو الذي نشأ]: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا بِنِيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا بَتِآءَ أَعْمَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَوَدَّعْنَاهُ أَن يَتَّبِعَهُ ۚ فَذَكَرْنَا لِرَبِّنَا أَنَّا كَفَّارَةٌ ۚ فَجَزَىٰ الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُنِينُ ۝ وَوَدَّعْنَاهُ بِدَبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝﴾

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠١﴾ إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ وَسَتَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٣﴾
[الصافات: ١٠١-١١١]. ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم
ﷺ على ذبح ولده لولا أن من الله عليه بالفداء.

الرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول، فهي باقية للمؤمنين، وإن لم تكن وحياً،
قال عليه الصلاة والسلام: «انقطع الوحي وبقيت المبشرات، رؤيا المؤمن» [الرؤيا
الصالحة].

والرؤيا الصالحة في المنام للأنبياء هي القسم الأول من أقسام التكليم الإلهي
المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ
يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّكُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥١].

(ب) ومنه الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة، وهو ثابت لموسى
ﷺ: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]،
﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.
وهذا النوع هو القسم الثاني المذكور في الآية: ﴿ أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١].
وليس في القرآن شيء منه كذلك.

كيفية وحي الملك إلى الرسول

وحي الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة، وهو ما ذكرناه آنفاً، وكان منه
الرؤيا الصالحة في المنام، والكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة، وإما أن يكون
بواسطة ملك الوحي وهو الذي يعيننا في هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به.
ولا تخلو كيفية وحي الملك إلى الرسول من إحدى حالتين:
الحالة الأولى: -وهي أشد على الرسول- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس،

والصوت القوي يثير عوامل الانتباه فتهياً النفس بكل قواها لقبول أثره، فإذا نزل الوحي بهذه الصورة على الرسول ﷺ نزل عليه هو مستجمع القوى الإدراكية لتلقيه وحفظه وفهمه، وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه في الحديث: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان» [رواه البخاري] وقد يكون صوت الملك نفسه في أول سماع الرسول له.

والحالة الثانية: أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر، وهذه الحالة أخف من سابقتها، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحي، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

والهيئة التي يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته، ولا يعني أن ذاته انقلبت رجلاً، بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أنساً للرسول البشري، ولا شك أن الحالة الأولى - حالة الصلصلة - لا يوجد فيها هذا الإيناس، وهي تحتاج إلى سمو روحي من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك فكانت أشد الحاليتين عليه، لأنها كما قال ابن خلدون: «انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية».

وكلتا الحاليتين مذكور فيما روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعبت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول».

وروت عائشة رضي الله عنها ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة فقالت: «ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً» [رواه البخاري].

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهي المشار إليه في الآية:

﴿ وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْقِيَكَ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ

بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿﴾ [الشورى: ٥١].

أما النفث في الروع - أي القلب - فقد ذكر في قول الرسول ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» [رواه أبو نعيم في الحلية بسند صحيح]. والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة. فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة، فيأتيه الملك في مثل الصلصلة وينفث في في روعه، أو يتمثل له رجلاً وينفث في روعه، وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم.

شبه الجاحدين للوحي

س: كيف نرد على شبهات المنكرين للوحي قديماً وحديثاً؟

ج: حرص الجاهليون قديماً وحديثاً على إثارة الشبه حول الوحي الإلهي عتواً واستكباراً، وهي شبه واهية مردودة.

١- زعموا أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ، ابتكر معانيه، وصاغ أسلوبه، وليس وحياً يوحى.

وهذا زعم باطل، فإنه عليه الصلاة والسلام إذا كان يدعي لنفسه الزعامة ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له في أن ينسب ما يتحدى به الناس إلى غيره، وكان في استطاعته أن ينسب القرآن لنفسه، ويكون ذلك كافياً لرفعة شأنه، والتسليم بزعامته، ما دام العرب جميعاً على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته، بل ربما كان هذا أدعى للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتى بما لم يستطيعوه.

ولا يقال إنه أراد بنسبة القرآن إلى الوحي الإلهي أن يجعل لكلامه حرمة تفوق

كلامه حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته وإنفاذ أوامره، فإنه صدر عنه كلام نسبه لنفسه فيما يسمى بالحديث النبوي ولم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئاً، ولو كان الأمر كما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله تعالى.

وهذا الادعاء يفترض في رسول الله ﷺ أنه كان من أولئك الزعماء الذين يعبرون الطريق في الوصول إلى غايتهم على قنطرة من الكذب والتمويه، وهو افتراض يأباه الواقع التاريخي في سيرته عليه الصلاة والسلام، وما اشتهر به من صدق وأمانة شهد له بهما أعداؤه قبل أصدقائه.

لقد اتهم المنافقون زوجه عائشة بمحدث الإفك، وهي أحب زوجاته إليه، واتهامها بمس كرامته وشرفه، وأبطأ الوحي، وتخرج الرسول ﷺ وتخرج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر، وبذل جهده في التحري والاستشارة، ومضى شهر بأكمله، ولم يزد على أنه قال لها آخر الأمر: «أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله» [راجع حديث الإفك في الصحيحين وغيرهما، وتفسير القصة في سورة النور] وظل هكذا إلى أن نزل الوحي ببراءتها، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلاماً يقطع به السنة المتخرصين، ويحمي عرضه؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَمَدٍ عَنْهُ حَجْرِينِ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

واستأذن جماعة في التخلف عن غزوة تبوك وأبدوا أعذاراً، وكان منهم من انتحل هذه الأعذار من المنافقين وأذن لهم، فنزل القرآن الكريم معاتباً له لخطأ رأيه ﴿عَمَّا أَلَّفَهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَقٌّ يَسْتَبِينَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمِ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]. ولو كان هذا العتاب صادراً عن وجدانه تعبيراً عن ندمه حين تبين له فساد رأيه لما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد والعتاب القاسي.

ونظير هذا معاتبته ﷺ في قبول الفداء من أسرى بدر ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ

أَشْرَى حَتَّى يُشْحَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿الأنفال: ٦٧-٦٨﴾.

ومعاتبته في توليه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه اهتماماً بنفر من أكابر قريش في دعوتهم إلى الإسلام ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ① أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّكَ يُرَى ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ④ أَمَا مِنْ أَسْتَفْتَى ⑤ فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّى ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ⑦ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ⑧ وَهُوَ يَخْشَى ⑨ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ⑩ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرٌ ﴿عبس: ١-١١﴾.

والمعهود في سيرته رضي الله عنه أنه كان منذ نعومة أظفاره مثلاً فريداً في حسن الخلق، وكرام السجايا، وصدق اللهجة، وإخلاص القول والعمل، وقد شهد له بهذا قومه عندما دعاهم في مطلع الدعوة وقال لهم: «أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بظهر هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً» [رواه البخاري ومسلم]. وكانت سيرته العطرة مهوى أفئدة الناس إليه للدخول في الإسلام، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله، قدم رسول الله، فجنحت في الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب» [رواه الترمذي بسند صحيح].

وصاحب هذه الصفات العظيمة التي يتوجها الصدق ما ينبغي لأحد أن يمترى في قوله حينما أعلن نفسه بأنه ليس واضح ذلك الكتاب ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَسْبَغَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

٢- وزعم الجاهليون قديماً وحديثاً أنه عليه الصلاة والسلام كان له من حدة الذكاء، ونفاذ البصيرة، وقوة الفراسة، وشدة الفطنة، وصفاء النفس، وصدق التأمل، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر، والحق والباطل، بالإلهام، ويتعرف على خفايا الأمور بالكشف والوحي النفسي، ولا يخرج القرآن عن أن يكون أثراً للاستنباط العقلي، والإدراك الوجداني عبّر عنه محمد بأسلوبه وبيانه. وأي شيء في القرآن يعتمد على الذكاء والاستنباط والشعور.

فالجانب الإخباري - وهو قسم كبير من القرآن - لا يماري عاقل في أنه لا يعتمد إلا على التلقي والتعلم.

لقد ذكر القرآن أنباء من سبق من الأمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذي يضرب في أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى بما لا يدع مجالاً لإعمال الفكر ودقة الفراسة. ولم يعاصر محمد ﷺ تلك الأمم وهذه الأحداث في قرونها المختلفة حتى يشهد وقائعها وينقل أنبأها، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها ويروى أخبارها ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿١١﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٤-٤٥].

﴿يُنَالِكَ مِنَ الْبَنَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

﴿وَعَنْ نَفْثِ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَنْفِيلِيكَ﴾ [يوسف: ٣].

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

ومنها أنباء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التي لا يعلمها إلا الدارس البصير، ففي قصة نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. وهذا موافق لما جاء في سفر التكوين من التوراة.

وفي قصة أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

وهي عند أهل الكتاب ثلاثمائة سنة شمسية، والسنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية.

فمن أين أتى محمد ﷺ بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يوحى إليه وهو الرجل الأمي الذي عاش في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب .

وقد كان أهل الجاهلية الأولى أذكى من ملاحدة الجاهلية المعاصرة، فإن أولئك لم يقولوا إن محمداً استقى هذه الأخبار من وحي نفسه كما يقول هؤلاء، بل قالوا: إنه درسها وأمليت عليه ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأُولَىٰ أَكْتَنَّبَهَا فَهِيَ تُمَلَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

ولم يتلق رسول الله ﷺ درساً على معلم قط - كما سيأتي - فمن أين جاءته هذه الأنباء فجأة بعد أن بلغ الأربعين. ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]. هذا في الجانب الإخباري.

أما في سائر العلوم التي تضمنها القرآن فإن قسم العقائد يتناول كذلك أموراً تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته، والحياة الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وما يتبع ذلك من الملائكة وأوصافهم ووظائفهم، وهذه معلومات لا مجال فيها لذكاء العقل وقوة الفراسة البتة.

﴿وَمَا جَعَلْنَا آخِزَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

ناهيك بما تضمنه القرآن من أحكام قاطعة عن أخبار المستقبل التي تجري على سنن الله الاجتماعية، في القوة والضعف، والصعود والهبوط، والعزة والذلة، والبناء والدمار ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَبْغُوهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥٦﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ

أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤٠-٤١﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].
أضف إلى هذا أن القرآن الكريم قد حكى عن رسول الله اتباعه للوحي ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِبَيِّنَةٍ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِيَّتْهَا قُلٌ إِنَّمَا أُتِيَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٢٠٣].
وأنه بشر لا يعلم الغيب ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقد كان عليه الصلاة والسلام عاجزاً عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين شاهدين أمامه ليقضى بينهما وهو يسمع أقوالهما فهو بلا شك أشد عجزاً عن إدراك ما فات وما هو آت، سمع رسول الله ﷺ خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضى له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليركها» [رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن].

قال الدكتور محمد عبد الله دراز: «هذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم «الوحي النفسي» زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد، وما هو بجديد، وإنما هو الرأي الجاهلي القديم، لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله، فقد صوروا النبي ﷺ رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذن شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيراً على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه، وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذن الجنون أو أضغاث الأحلام، على أنهم لم يطبقوا الثبات طويلاً على هذه التعليقات، فقد اضطروا أن يهجرُوا كلمة «الوحي النفسي» حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار

الماضية والمستقبلية، فقالوا: لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة، فهو إذن قد علمه بشر، فأبي جديد ترى في هذا كله، أليس كله حديثاً معاداً يضاهاون به قول جهال قريش، وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الحديد صورة مستنسخة، بل ممسوخة منه في أقدم أنوابه، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمداً من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].
 وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله إنه كان صادقاً أميناً، وإنه كان معذوراً في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلهي، لأن أحلامه القوية صورتها له وحيًا إلهيًا، فما شهد إلا بما علم، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء لا هو ولا قومه من قبل هذا، بينما هو قد سمعها - بزعمهم من قبل - فليقولوا إذن إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل، ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل، ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون» [راجع: النبأ العظيم].

٣- وزعم الجاهليون قديماً وحديثاً أن محمداً قد تلقى العلوم القرآنية على يد معلم.

وهذا حق، إلا أن المعلم الذي تلقى عنه القرآن هو ملك الوحي، أما أن يكون له معلم آخر من قومه، أو من غير قومه فلا.

إنه عليه الصلاة والسلام قد نشأ أميناً وعاش أميناً، في أمة أمية لم يعرف فيها أحد يحمل وسام العلم والتعليم، وهذا واقع يشهد به التاريخ، ولا مرية فيه.

أما أن يكون له معلم من غير قومه فإن الباحث لا يستطيع أن يقع في التاريخ على

كلمة واحدة تشهد بأنه لقي أحدًا من العلماء حدثه عن الدين قبل إعلان نبوته .
 حقيقة أنه رأى في طفولته بجيرى الراهب في سوق بصرى بالشام، ولقي في مكة
 ورقة بن نوفل إثر مجيء الوحي، ولقي بعد الهجرة علماء من اليهود والنصارى، لكن
 المقطوع به أنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء شيئًا من الأحاديث قبل نبوته، أما بعد
 النبوة، فقد كانوا يسألونه مجادلين فيستفيدون منه ويأخذون عنه، ولو كان رسول الله
 ﷺ أخذ شيئًا عن واحد منهم لما سكت التاريخ عنه؛ لأنه ليس من الهنات والهينات
 التي يتغاضى عنها الناس، لا سيما الذين يقفون للإسلام بالمرصاد، والكلمات التي
 ذكرها التاريخ عن راهب الشام أو ورقة بن نوفل كانت بشارة بنبوته عليه الصلاة
 والسلام [قال بجيرى عندما رأى في رسول الله ﷺ سيما النبوة: «إن هذا الغلام سيكون له شأن
 عظيم»] أو اعترافًا بها [قال ورقة عندما سمع قصة النبي ﷺ من صفة الوحي وقد أخذته خديجة
 إليه يرجف فؤاده: «هذا هو التاموس الذي أنزله الله»].

ونقول لهؤلاء الذين يزعمون أن محمدًا كان يعلمه بشر: ما اسم هذا المعلم؟
 وعندئذ نرى الجواب المتهافت المتداعي في «حداد رومي» [كان غلامًا نصرانيًا،
 واختلف أهل السيرة في اسمه فقبل اسمه «سبيعة» وقيل «يعيش» وقيل «بلعام»] ينسبون إليه ذلك،
 فكيف يستساغ عقلاً أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه مكة عالمًا
 متفرغًا لدراسة الكتب، بل عرفته حدادا منهمكًا في مطرقة وسندانه، عامي الفؤاد،
 أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلى العرب ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ
 يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ
 مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ولقد كان العرب أحرص الناس على دفع هذا القرآن إمعانًا في خصومة محمد ﷺ،
 ولكنهم عجزوا ووجدوا السبل أمامهم مغلقة، وباءت كل محاولاتهم بالفشل، فما
 للملحدين اليوم -وقد مضى أربعة عشر قرنًا على ذلك- يبحثون في قمامات التاريخ
 ملتسمين سبيلًا من تلك السبل الفاشلة نفسها!؟

وهذا يتبين أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر إنساني، لا في نفس صاحبه، ولا عند أحد من البشر، فهو تنزيل الحكيم الحميد.

ونشأة رسول الله ﷺ في بيئة أمية جاهلية، وسيرته بين قومه، من أقوى الدلائل على أن الله قد أعد له حمل رسالته، وأوحى إليه بهذا القرآن هدايةً لأُمَّته: ﴿وَكَذَلِكَ أَرْجَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلْمُ فِيهِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليفة، وما جاء في الكتاب من قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]؛ لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم، حاشا لله، إن ذلك هو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

